الشمائل التجانية

تأليف
العلامة القاضي العارف بالله
سيدي الحاج أحمد سكيرج
رضي الله عنه

دراسة وتحقيق
ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الشمائل التجانية(1)

حمدا لمن توج بتاج القبول أهل الخصوصية من خدام حضرته. وأدخل من باب الوصول من انحاش لجانبه بصدق خدمته.

هم الرجال لهم مجال معرفة   بربهم فحباهم منتهى الأمل

فجلسوا على كراسي العناية، وحفتهم برداء رحمته، ونشرت عليهم ألوية الولاية، بما لهم من كمال محبته.

باعوا نفوسهم لله فانشرحت   صدورهم للذي يرضاه من عمل

فبسطت لهم موائد الإنعام في بساط الأنس به، فتنعموا بملذات الإكرام بتقربه، لكل واحد منهم بما عينه تقر به.

ذاقوا بحضرته طعم الوصول فلم   يسلي امرؤ منهم عن طعم ما ذاقه
قد استلذوا بما قد ذاق في طرب   فجل في حضرة العشاق أطواقه

رفع عنهم الحجاب بعدما سقاهم خمرة الوصول، فأصبحوا في ذلك الجناب ممن يتوسل بهم في نيل كل سول.

ألا إن أهل الله لا شك هم هم   الوسائط في نيل المراد من الله

---

(1) يبدو جليا لكل باحث أو مهتم أن العلامة سكيرج رحمه ا لم يترك جانبا من جوانب العلم إلا وقد صنف فيه بما فيه الكفاية، وهذه خصوصية فريدة من نوعها قلما توجد عند غيره. وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أننا لم نسمع بها أو نراها منذ زمان بعيد، وخلاصة القول أن مرد تفوقه المعرفي يعود بالدرجة الأولى لاهتماماته المتزايدة بالحث والتنقيب والدراسة والمراجعة المسترسلة، بالإضافة لاقتنائه أمهات المصادر المعتمدة. حيث كان منزله عبارة عن خزانة عامة شاملة تعج بمآت المخطوطات القيمة العديمة النظير.
والواقع أن العلامة سكيرج رحمه ا كان مندفعا للتأليف، قاصدا نفع الناس على اختلاف مراتبهم، وإدخال السرور والسكينة إلى قلوبهم. فقد كانت جعبته ممتلئة بالمعارف الغزيرة المتنوعة، فهو بين الأدباء أديبهم، وبين الفقهاء فقيههم، وبين المؤرخين مؤرخهم، وبين اللغويين لغويهم، وهكذا، وهذه العلة هي من أهم الأسباب التي جعلته يدخل دفعة واحدة وسط جبهات متعددة من تصانيفه التامة وغير التامة، وكتابه هذا المسمى بالشمائل التجانية هو من بين التآليف التي لم يتمها نظرا لسبب أو لآخر، ومهما كانت نوعية السبب فمردها للوقت، وأظن أن العلامة سكيرج رحمه ا لو سمح له الوقت بأقل القليل منه لما ترك كتابا واحدا من كتبه دون إتمام.

وإن أكرم ولي على الله من بين الأصفياء، من خص من الحضرة المحمدية بكمال الظهور في الخلافة الباطنية فكان خاتم الأولياء :

أحمد الختم التجاني المرتقى   في مراقي المجد في أولي العلا
مركز الفضل الذي قد نال من   خاتم الرسل مقاما قد علا

فأكرم به من ولي كان ظهوره في آخر الدهر من تمام الرحمة على الأمة من حيث لا يشعرون، وأعظم به من ولي كان وروده وصدوره في أولي القدر من سر الحكمة التي تقدم بها على الأئمة في كل محل يذكرون الله فيه ويشكرون.

نال من خير الورى فوق المنى   وحباه منه غايات الظفر
توجته يده تاج الرضا   فغدا ختما بعلياه ظهر

فرضي الله عنه من ولي تولى الله أموره كلها، فربته النظرة المحمدية بكمال الإعتناء به حتى صير في يده من سائر الأمور شدها وحلها.

هو قطب الوجود والجود منه   غمر الكون بالنوال العميم
قد تجلى بين الورى في مقام   تحته كل ذي مقام عظيم

قد بلغ الغاية في القطبانية، ووصل لما دون النبوة من المقامات التي لها الهيمنة على المراتب العرفانية، فهو بعد الصحابة الكرام، لا يبلغ سواه أدنى مقام، من مقاماته طول الدوام، فصلى الله وسلم على خير نبي منحه بذلك الإصطفاء، وحباه بما لم تفي بالإفصاح عنه ألسنة الفصحاء، في مدح أكابر الخلفاء، ورضي الله عنه وعلى سائر أهل البيت الطيبين، وصحابة سيد المرسلين أجمعين.

وبعد فقد حداني حادي المحبة في هذا الجناب الأحمدي والمقام المحمدي أن أقيد من شمائله ما تقر به عيون أهل الولاء، وأملي من بعض مناقبه وفضائله ما فيه هدى وشفاء(2).

يحيا به قلب المحب وتنجلي   عنه به الأكدار والأغيار
وبه ينال من السرور مسرة   فيها بشرح صدوره أسرار

---

(2) كان العلامة سكيرج رحمه ا ورضي عنه طيلة حياته ميالا للبحث عن مآثر شيخه أبي العباس التجاني رضي ا عنه، مجدا في التنقيب عليها، وفي ذلك يقول رحمه ا :

مآثر الشيخ فيها الخير أجمعـه   طوبى لمن عينه ترى له أثرا
كفى الذي لم يكن رءاه رؤيتها   بشرى بنيل الذي له قد ادخرا

وحدث يوما أنه وجد عند بعض أصدقائه العكازة التي كان الشيخ التجاني رضي ا عنه يجعلها في يده حين ذهابه وإيابه، فأخذها بين يديه قصد التبرك بها، وفاضت قريحته الشعرية حينا فقال وهو ماسك لها :

بشراي قد جاد لي دهري بأمنيتـي   وحاز كفي سرا لم يكن حـ ـازه
إن فاتني من يدي شيخي مصافحة   فاليوم ها أنا ذا صافحت عكازه

والباعث على جمعها في هذه العجالة ما اختلج في الصدر من القيام بهذا الصدد، لكونه مما ينفع ذوي الصدور السليمة لا محالة، فهو دليل بحول الله على البلوغ للسول، وبه يتوصل للحصول على ثمرة الوصول، بما اشتمل عليه من شمائل سيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، وبما انطوى فيه من المكارم التي ستذكر بحول الله في أبوابه(3)،

فإن في كل باب من مناقبه ... ما فيه باهر أسرار وأنوار
تشفي قلوب المحبين الذين لهم ... فيه جميل اعتقاد دون الأشرار

وسميته بالشمائل التجانية، والله أسأل أن ينفع به سائر الإخوان، وأن تكون سببا في إقناع أهل النكران، بقطع لسان إنكارهم على أهل الله.

---

(3) كان العلامة سكيرج رحمه ا يرى أن ذكر شمائل ومآثر الشيخ رضي ا عنه دافع من أهم الدوافع التي تساعد على تعميق روابط المحبة لدا المريدين، كما له تأثير بالغ في تربية الطالب المحب والسمو به للمنزلة الراقية الحميدة، وانطلاقا من هذا كان رضي ا عنه مغرما بمحبة شيخه لدرجة لا يستطيع أن يصل إليها إلا أمثاله من أكابر الأولياء والصديقين، وحدث يوما أنه اطلع عند بعض أصدقائه على نظارتين من مآثر سيدنا الشيخ رضي ا عنه، وهما من النوع القديم، كان ينظر بهما ما رقت خطوطه من الرسائل والأجوبة، فوضعها على أنفه تبركا، ثم قال من فرط سروره بذلك قصيدة نونية طويلة قال في مطلعها :

بحبي فيك صرت قرير عيني ... وعن قلبي بودك زال غيني

إلى أن قال :

وساعدني الزمان فنلت فـيه ... مآثر قد أزالت حجب عيني
نظرت بناظري آيات حـ ـق ... بدت لي منه بين الخافقيـن
ولم أرى مثل وقت طاب عندي ... بسر نلت من نظارتـيـ ـن
فإني مذ وضعتهما بأنفـ ـ ـي ... نظرت بعينه إنسان عينـي

ثم أطلعه نفس الصديق وهو (العلامة الأمين الحاج محمد بن سيدي أحمد بناني كلا) على لوح كتب فيه سيدنا الشيخ رضي ا عنه سورة الرحمان بخط يمينه المباركة، فتبرك به العلامة سكيرج كثيرا، ثم جادت قريحته الشعرية فيه بقصيدة قال في مطلعها :

لوح فيه نـيـل أمـانـي ... وكبير سر ظاهر لعيـان
تتشعشع الأنوار منه لنـاظـر ... ويزيح كل عنى عن الأعيان
كملت محاسنه بخط الشيخ إذ ... رسمت به آي مـن القرآن
قد أقبل الفتح المبين لمن لـه ... قد خط فيه سورة الرحـمان
ولمن رآه بـشارة بـمفـازة ... وافت له بعناية المـنـان
ما هو إلا الكنز فيه من المنى ... للنفس ما يشفي من الأحزان
فهو الذخيرة عند من ظفرت به ... يده ومفتاح لنيل أمـ ـان
در يد مباركة بـ ـ ـ ـه ... رسمت حروفا مثل عقد جمان

إلى آخر القصيدة وهي طويلة.

فإن من كان بالإنكار مشتغلا	ولم يتب سلب الإيمان والدينا
فكم أناس بإنكار لهم أخذوا	بالخسر فيما يحاولونه حينا

ولذلك ينبغي الإهتمام ببعض المسلمين الذين لم يذوقوا من طعم التصديق لأهل الله، بالتمني لهم بالتوفيق للتوبة عما اقترفوا من غير شعور منهم. فيما آذوا به من يحارب عنه مولاه، وقليل من اهتم بمثل هذا القصد الأحمدي، بالتمني للمسلمين ما لهم يحمد، فنسأل المولى أن يسلك بنا مسالك النجاة دنيا وأخرى، ويجعل السعي من العمل المشكور، ويعظم للجميع به أجرا آمين.

سابقة في المقصود من هذا التأليف

اعلم أن المقصود من هذا التأليف هو ذكر أحوال سيدنا رضي الله عنه من ابتداء نشأته إلى منتهاها، مع ما هي عليه ذاته الأحمدية وشمائله المحمدية، والتعرض لبعض فضائل طريقه وأذكاره، والتنبيه على جملة من مناقبه وأسراره(4).

فإن قلبي به بين الورى كلف	مستغرق الوقت في التقاط أنوراه
أعد ما قد ظفرت من محاسنه	نزرا ومن بعدها كمال أنواره

غير أن ما أذكره وإن كنت لم أجتمع به رضي الله عنه، فإني قد تلقيت ذلك عمن تلقوا ذلك عمن تلاقوا به وصحبوه، وحباهم من قربه ما زادهم ودا فيه وأحبوه، وأعتمد في غالب ذلك على ما استفدته من شيخنا العارف بالله، الدال عليه في سره ونجواه، والد روحنا، ومربينا بنظرته وكمال همته، سيدي ومولاي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، مع ما تفرق في كتب الطريقة ووقفت عليه في مجامع الخاصة من المقدمين ورسائله ورسائلهم، فقد ظفرت بحمد الله بجملة وافرة من أسراره وأسرار خاصة أصحابه الموقوف عليها في كنانيشهم وتقاييدهم بخط يدهم أو بخط من نقلها من خطهم.

وقد أشرت إلى جملة من مناقب خاصتهم على سبيل الإختصار هنا، ليكون هذا التويلف جامعا لمحاسن غيره من التآليف الجمة، ولعل بعض من اطلع على ما سيذكر من أحوال سيدنا رضي الله عنه

---

(4) لو كتب لهذا التقييد أن يتم لكان بدون منازع واحدا من بين أعظم الكتب المؤلفة في الطريقة الأحمدية التجانية، وليس في هذا القول مجاملة، بل هي الحقيقة بعينها، ويرجع هذا بالأساس لعدم وجود تأليف آخر تناول هذا الموضوع باستقلالية عن غيره. واختيار العلامة سكيرج رحمه ا لهذا الموضوع نابع عن علمه بحاجة الناس إليه، انطلاقا من كون معرفة الشيخ واجبة على كافة أتباعه ومريديه عند جميع أهل التصوف، وهذا بطبيعة الحال مع خبرته الواسعة الصحيحة بهذا الموضوع الشيق، حيث كانت معلوماته فيه كثيرة ودقيقة. وقد ساعده على اكتساب هذه المعلومات جماعة ممن التقى بهم من أفاضل علماء الطريقة التجانية، المعروفين بالولاية والإستقامة والعدل والنزاهة، وفي مقدمتهم العارف با المقدم الشريف البركة مولاي أحمد العبدلاوي، وذلك لكونه من أهم الأشخاص الذين أخذ عنهم العلامة سكيرج واستفاد منهم في الظاهر والباطن.

يتعرض إلى ما يراه بمعراض الإعتراض علي، وأقل ما يقول كيف يذكر صفة هذا الشيخ مع ما له من الأحوال وهو لم يجتمع به ؟ ومن أين له مما جاء به ؟ فأقول حينئذ :

إني أشرت لما اعتمدت في عملي	ولي بذلك علم واضح السبل
من شاء فليعترف بما اعترفت به	وما علي إذن في كل منخذل

ورتبته على أبواب تنشرح بها صدور الأحباب، وتنقبض عنها نفوس الحسدة الذين ينسبون للخطأ ما هو عين الصواب(5).

باب في شيبه رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه منور الوجه بالشيب، غاب اسوداده في بياضه، بل عمه الشيب، وهو في فرح تام من ذلك الوقار الإبراهيمي الذي طالما تمنى أن يناله قبل الوفاة، لما تحققه في عالم سره بما للشيب من كبير الحرمة عند الله، ويعجبه سماع قول القائل في خضاب مولاه :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم	في رقهم عتقوها عتق أبرار
وأنت يا سيدي أولى بذا كرما	قد شبت في الرق أعتقني من النار

ومثل هذا من المواعظ الحسنة، والتخلق بمكارم الأخلاق لا يشوش فكر المحب الصادق في الضمان المحمدي لسيدنا رضي الله عنه في بلوغ مطالبه، وفوق ما طلب لنفسه ولمن أحب، ولكن كان رضي الله عنه كثيرا ما يحذر من الأمن من مكر الله، فتدعوه رقة القلب إلى إعطاء التجلي حقه أدبا من نفسه، وتأديبا لأبناء جنسه، على ما هو متحقق به في سره من الضمان الذي لا ينقطع استمداده دنيا وأخرى، ومع ذلك فيتأثر للموعظة ويحب سماعها، ويذكر بما ينفع المؤمنين.

فكان ينوه في مجالسه بما يتعين من آداب المريد مع ذوي الشيبة والنظر إليهم بعين الإعتبار والإحترام، ولا شك أن الصغير إذا احترم الكبير فإنه يظفر بما لم يظفر به المنتهك لحرمته، حتى أن

---

(5) لا يختلف اثنان على صعوبة التأليف في هذا الموضوع الدقيق، وذلك لأسباب كثيرة ومتعددة. لكن ما لا يأخذ كله لا يترك كله، ولهذا أقدم العلامة سكيرج على جمع ما تبث عنده من شمائل شيخه أبي العباس التجاني رضي ا عنه هادفا بذلك إلى خدمة الإخوان الفقراء، وتعريفهم بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التي كان يتمتع بها شيخهم المذكور، ولا تفوتني هنا الإشارة لصاحب جواهر المعاني العارف بربه سيدي الحاج علي حرازم. فقد تطرق لهذا الموضوع بتلخيص في الجزء الأول من كتابه، لكن وفاته المبكرة بالمدينة المنورة عام 1218هـ تركت فترة مهمة من حياة الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه دون تدوين، خاصة فيما يتعلق بشمائله المباركة. وكان هذا السبب دافعا قويا للعلامة سكيرج للقيام بهذا العمل النبيل، مع أسفنا الشديد على عدم تمكنه من إتمامه. وقد بذلنا جهد المستطاع محاولة منا لإتمامه. وذلك في محل آخر غير هذا البحث. لكن هناك بونا شاسعا بين المنهلين، إذ لا يستطيع ركوب البحر إلا أهله من العارفين بأحواله وتقلبات أمواجه.

الحق تعالى يبارك له في عمره فيطول، وقد قيل : حقا على الحق أن لا يتوفى الموقر للشيب حتى يذكره، وورد في بعض الآثار : ليس منا من لم يوقر كبيرنا(6).

وقيل أنه وجد على عرش بلقيس منقوشا ما معربه :

ستأتي سنون هي المعضلات يراع من الهرعة الأجدل
وفيها يهين الصغير الكبير وذو العلم يسكته الأجهل

فعلى الإخوان التجانيين من واجب أدب الشيخ رضي الله عنه أن يلاحظوا هذا بين العين، ويلحظوا كل كبير بلحظ الإحترام، سواء كان متمسكا بحبل هذه الطريقة أو غير آخذ لعهدها، فتعظيم ذي الشيبة متأكد مراعاته شرعا وطبعا.

وقد كان سادتنا أصحاب الشيخ الذين ظفروا بملاقاته، وتنعموا بمشاهدة طلعة نوره وبهجته، يتنافسون في اقتناء شعره الكريم عندما يحلق رأسه الشريف، ويحسن لحيته المشرفة، ويقدمون الإكرام للحجام الذي يتناول تحسين هيئة سيدنا رضي الله عنه ليكرمهم بشيء من ذلك الشعر الشريف، فهو عندهم من الغنائم التي يحصلون عليها، ويتبركون به ويجعلونه في أعز الأمكنة لينالوا بركته، فمنهم من أوصى بدفنه معه، ومنهم من يجعل الشعرة في فم ولده ليمتص ما بها من السر، ومنهم ومنهم، وكل على نيته يجازى، فيجدون بركة ذلك في العاجل، ويأملون حصول المطلوب لهم به في الآجل.

وإلى الآن لا زال يتوارث الإخوان شيئا من الشعر الشريف بقصد التبرك به، وعندنا بحمد الله شعرات منه، نسأل الله النفع بها، غير أنه يتعين الإحتراز من الدجاجلة الكذابين على الإخوان، ممن يذخر بعض الشعرات وينسبها للشيخ وهي ليست له، فليحذر الصادق من المدعين.

باب في خضابه رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه يتعاهد خضاب شعره المرة بعد الأخرى. إقتداء بسنة جده (ﷺ)، وكان يقتدي به في ذلك ذوو الشيبة المنورة من الآخذين عنه مباشرة، وكان رضي الله عنه يحبب لهم أعمال السنة بالترغيب، ويباشر جل السنن بحضورهم تحريضا لهم على العمل بها، ليتم الإقتداء لهم به في الإقتداء بالسنة.

وإلى الآن لا زال أثر صبغ الخضاب لائحا على نور بعض الشعرات المذخرة عند الذين يحافظون عليها من خاصة الإخوان.

(6) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير وعزاه فيه لأحمد في المسند وللترمذي عن ابن عباس رضي ا عنهما أنظر الجامع الصغير ج 2 ص 138.

باب في كحله واكتحاله(7) :

كان سيدنا رضي الله عنه محافظا على العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بالأخلاق الكريمة السنية، والشمائل السنية، ويرغب أحبابه وأصحابه بالعمل بذلك بقدر الإمكان، ويباشر جل السنن بحضورهم، تحريضا لهم على العمل بها، ليتم الإقتداء لهم به باستنهاض هممهم في رؤيتهم لقيامه بنفسه، فيجدون بذلك تنافسا بالإقبال على ذلك، غير أنه كان رضي الله عنه يعمل في بعض الأحيان ببعض السنن ولا يتظاهر بها بين العامة، حتى لا يوسم بما اتسم به بعض أهل الدعوى الذي تشرأب أنفسهم للظهور والشهرة بمخالفة الناس، فترك بعض السنن التي صارت زيا لهم بنية مخالفتهم، سيما عندما يحصل بها كف ألسنة أهل الوقت في عرضهم بالتجاهر بها، فربما يعد هذا العمل من الأمر المحمود، ولذلك قال الشيخ زروق في مثل هذا ما نصه : ثلاث من السنة ينبغي تركها في هذه الأزمنة، ركوب الحمار، واتخاذ الوفرة، واستعمال الخاتم إلخ ...

ومن ذلك الخضاب والإكتحال، حيث كان العامة يلمزون من عملها، ويشار إليه بأصابع الغيبة والنميمة، فيكون معينا لهم على هلاكهم، ولذاك ترك الخاصة من أصحاب الشيخ رضي الله عنه وأحبابه العمل بهذه الشعائر التي صارت شعار أصحاب الدعاوي، وإن كانت في الصدر الأول لا يعمل بها إلا أولو الفتوة.

ولا شك أن ذلك وإن تقرر من السنة فإنه لا زال على ما هو عليه سنة محترمة عندهم يعملون بها عند ارتفاع المانع، فلا وجه للإعتراض في هذا المقام بأن ذلك موجب لترك هذه السنن. والسنة لا ينبغي تركها. ومن أحيا سنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. لما قلناه من أنهم يعملون ذلك في محل غير الشهرة، مع أنهم لا زالوا يحترمونها لسنيتها، وإنما تركها عارض بما أشرنا له، والله الموفق ...

باب في لباسه رضي الله عنه

كان الشيخ رضي الله عنه يلبس سلهاما من الوبر في بعض الأحيان، وفي بعض الأوقات يلبسه من الصوف، يدخله في عنقه، ولا يجعله على عاتقه من غير أن يدخله في عنقه، ويضرب

---

(7) جاء في كتاب الجواهر الغالية للعلامة سكيرج ص 22 : صفة كحل سيدنا الشيخ رضي ا عنه. نقلتها عن خط سيدي العربي بن السائح، وهو عن سيدي الحاج عبد الوهاب بن التاودي المعروف بابن الأحمر، وهو عن سيدنا رضي ا عنه، وهو كالتالي :
أبيضان : الشب والنشادر
أسودان : الفلفل والقرنفل
أحمران : الحديدة والزعفران
أزرقان : الحديدة والزنجار
تؤخذ أجزاء متساوية، وتدق ناعما، وتوزن مع الإثمد، وتستعمل للحاجة، فإنه جيد في جلاء العيون.

بطرفه على رأسه لتغطية وجهه عندما يريد أن لا يرى أحد وجهه، وبالأخص عند مروره بين النسوان وقت زيارته ووعظه لهن(8).

ولون برنسه البياض، وكان يتخيل لي أنه أسود، ولا يبعد أن يكون عنده، وله برنس كذلك من صبغة الرحمان، وأما لون الوبر فهو معروف، وكان يلبسه سفرا وحضرا، ولباس البرنس من لباس السلف الصالح، ففي العتبية قال مالك : سمعت عبد الله بن أبي بكر وكان من العباد وأهل الفضل يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به، وخميصة يروح بها، قال القاضي أبو الوليد ابن رشد : البرانس ثياب في شكل الغفائر عندنا، مفتوحة من أمام، تلبس على الثياب في البرد والمطر، وأما الخمائص فهي أكسية من صوف رقاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب الخ ... كما كان له رضي الله عنه كساء يلتحف بها، وكان يعقد طرفها بحزامه حتى لا تنحل عن كتفه، وكانت من النوع الرفيع والسدي الرقيق المتنافس في عمله للأكابر.

وكان سيدنا رضي الله عنه كثيرا ما يلبس الصوف، وكان يقول ما معناه : كل من لم يمتع جسده بلباس الصوف فقد ضيع نفسه، وكان رضي الله عنه يلبس الملف(9) كذلك.

باب في عمامته رضي الله عنه

كانت عمامته قدس سره على ما بلغنا على لسان الثقة من الثوب المعروف بالمطيب، وهذا الثوب كاد أن ينقطع، وهو من الكتان الغليظ، ذات عشرة أدرع، ويكورها على قلنسوة حمراء من تحتها قلنسوة بيضاء، ويغرز طرفها بإبرة حتى لا تنحل، ويلف عليها حبلا رقيقا من الوبر على عادة أهل الشرف الوطني(10)، وقد تبركت بحبل من الحبال التي كان يلف بها

---

(8) حول هذا الموضوع ذكر العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب ما نصه : وكثيرا ما كان سيدنا رضي ا عنه يدخل لدار صاحب الترجمة (عم العباس بن الغازي) فيجتمع عليه أهله للزيارة، فيضع سيدنا رضي ا عنه طرف سلهامه على وجهه لئلا يرى أجنبية، فإذا أكثرن عليه من طلب الدعاء وتقبيل يديه يقول لهن : بركه بركه، بمعنى يكفي يكفي، يأمرهن بالكف عنه، وكذلك كان رضي ا عنه يفعل في عشية الجمعة بالزاوية المباركة إذا كان خارجا منها، فإنه يذهب وحده للموضع الذي كان جعله لهن، لئلا يزدحمن بباب الزاوية فيحصل بذلك الضرر الديني من ازدحام النساء والرجال في الدخول والخروج، فإذا ذهب لناحيتهن يجعل على وجهه طرف سلهامه، فيزدحمن عليه للزيارة، فيدعو لهن بصلاح الأحوال دنيا وآخرى ويعظهن ويذكرهن إلخ ... أنظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 311.

(9) في كناش العارف بربه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي، قال الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح في معرض كلامه على ثياب سيدنا رضي ا عنه ما نصه : وكانت ثيابه في الغالب من أوسطها، ومن أفخرها في غيره، وربما كانت ثياب عبيده أحسن مما كان يلبسه هو رضي ا عنه، حتى أنك إذا رأيت عبيده حسبتهم غلمان الملوك.

(10) في كناش العارف بربه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي، قال الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح : كان سيدنا الشيخ رضي ا عنه يخيط عمامته من وراء لئلا تشغله في الصلاة إذا انفكت. وهي شقة كاملة من الثوب الرفيع. قال العلامة سكيرج : وهي عند المقدم الآن من النوع المسمى بالمطيب، ومقدار طولها عشرون ذراعا.

عمامته(11)، وجعلته على رأسي، ولويته على عنقي في وسط جماعة من الإخوان، من جملتهم محبنا الأعز المرحوم السيد الحاج محمد فتحا بن المدني القباج(12)، وهذا الحبل كان على ملكه، وقد أدرجه في عنقي وعنقه، وهذا الرجل من الفانين في محبة الشيخ رضي الله عنه، وقد أفضى به الإستغراق في المحبة إلى الجذب الذي اتصف به آخر عمره بنحو أربع سنين، وقد توفي رحمه الله عام 1333هـ، وحول هذا المقام أنشدت مخاطبا لسيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به(13) :

حبلي بحبلك لا يزال منبرما ... رغما على أنف من يراه منصرما
ومنك أسديت لي أجل مكرمة ... بها أعز كرامة لدا الكرما
أدنيتني منك في سر وفي علن ... فنلت أقصى المرام منك والنعما
مولاي يا أحمد بن سالم سندي ... يا سيدا كل من به احتمى سلما
ربطت رأسي بحبل كنت تربطه ... من فوق هامة فضل قد علت هِمما
وقد تيقنت أن السعد ساعدني ... بنيل سر بذاك أمره عظما
وذاك طبق اعتقادي فيك يا أملي ... حبلي توثق في حبل بك انبرما
بالله لا تقطع الحبل الذي اتصلت ... به حبالي وكن لي راعيا ذمما
فقد بلغت مقاما ليس يدركه ... سواك دنيا ولا أخرى لدا العلما
ألست أنت إمام الأوليا وبك المولى ... الولاية في الدارين قد ختما
وقد رجوتك في دنيا وآخرة ... لكل أمر مهم كلما دهما
وحاش أن لا أنال فوق أمنيتي ... من بحر جودك وهو يكشف الغمما
والمصطفى لك قد أدى ضمانته ... بنيلك المبتغى طبق الذي علما
صلى عليه الإله دائما وعلى ... آل وصحب ومن به قد احترما

(11) قال العلامة سكيرج : كان سيدنا رضي ا عنه يجعل على عمامته طيلسانا شالا، يسدله على رأسه ويمر به تحت حنكيه وعنقه الشريف، وربما لف عليه حبله الوبري، وربما لف الحبل فوق لية حائكه. وكان رضي ا عنه يجعل في بعض الأحيان حرزا بين ليات عمامته لسر باطني يقصده بذلك.

(12) ترجم له العلامة سكيرج في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية، وقال فيه بعد كلام : ويكفيك فيه أنه من أبناء خدام الحضرة التجانية من السادة أولاد القباج. ودارهم دار الشيخ رضي ا عنه في الحضرة الفاسية، ينسبون إلى الشيخ رضي ا عنه بجميع ما لهم من أولاد وأهل وفرع وأصل، قد لحظتهم عين العناية فكانوا من خاصة المنتسبين لهذه الحضرة التجانية، حيث استغرقوا أعمارهم في حب الشيخ رضي ا عنه وحب من انتسب إليه الخ ... انظر الرحلة الوهرانية للعلامة سكيرج ص 19.

(13) قال العلامة سكيرج : ومما وقع لسيدي الحاج علي أملاس مع سيدنا رضي ا عنه ما حدثني به بعض أحفاده أنه دخل على سيدنا رضي ا عنه والحجام يحسن له، ورأى عمامة سيدنا رضي ا عنه فوق الأرض منزلة، فأخذها وجعلها فوق رأسه ليتبرك بها، فبمجرد جعلها عليه أحس بخروج عينيه من موضعها من فرط ما حملته من السر، لمسها لرأس سيدنا رضي ا عنه، ثم إنه جعل يديه عليها وصار يصيح، فرآه سيدنا رضي ا عنه، فقال له : ما حملك على هذا ؟ ونزعها من رأسه، وصار يطلب له من ا اللطف لئلا تتلف عيناه من فرط التجلي الذي حصل له بسبب ذلك، وبقي مريضا مدة إلى أن شفاه ا تعالى. انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 272.

باب في نعال سيدنا الشيخ رضي الله عنه

كانت نعل سيدنا رضي الله عنه من النعال المعروفة عندنا بفاس بالنعال المشيطة، وهي الجنس الرفيع من النعال في وقته، وهي تشابه النعل الشريف في الهيئة، فكان رضي الله عنه يلبسها مدة قليلة ثم يلتمس الأصحاب منه أن يتحفهم بها فيلبس بدلها جديدا، وما شوهدت في رجله الشريفة نعل بالية، وذلك حالة ركوبه ومشيه راجلا، مما ازداد به حساده عجبا من الترفه الذي لم يظفروا منه بأقل قليل، وقد تشرفت بالتبرك بنعله اليسرى عند محبنا الأعز السيد أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباج(14). وباليمنى عند عمه المحب الصادق السيد محمد فتحا القباج، وتشرفت كذلك بالنعل الشريف التي هي عند الشريف الجليل سيدي إبراهيم بوطالب، وكنت عملت في ذلك أبياتا ذكرتها في الرحلة الوهرانية(15)، وتبركت بها عند أولاد السيد ابن التاج بوجدة حيث كنت بها قاضيا، وتبركت بها عند الأمين الكاتب بدار المخزن السيد علال بن حيون(16)، ولم أعرفها عند غير هؤلاء.

---

(14) أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباج، فقيه جليل، من مواليد مدينة فاس عام 1290هـ، وبها أخذ العلم والمعرفة، ثم انتقل لمدينة وهران عام 1320هـ، وذلك بقصد مزاولة التجارة بها، وقد توسع العلامة سكيرج في ترجمته في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية ص 21-32. وكذلك في كتابه رياض السلوان ص 21.

(15) انظر الرحلة الحبيبية الوهرانية للعلامة سكيرج ص 31. وقد قال في آخر هذه القصيدة :

لله من شيخ يفوز مريده	بمناه مهما حل رحب مناره
إني لأحمد خدمتي لجنابه	بمدائح نظمت بسلك نظاره
إن كان يوما فاتني منه اللقا	ما فاتني الآيات من آثاره
فأنا الذي في حبه أصبحت لا	أبغي سوى التعطير من أخباره
إن لم أكن قبلت أخمص رجله	فلقد ظفرت بلثم نعل يساره
وبموطئ القدم الشريفة كحلت	عيناي منه تبركا بغباره
وبذاك آمل أن أفوز بمطلبي	دنيا وأخرى كي أرى بجواره
وأكون ملحوظا بعين عناية	في الدهر لا أخشى جميع شراره
متوسلا في ذا بشيخي المرتضى	وبجاه ما قد نال من أذكاره
وبجاه ما قد نال من خير الورى	من فيض عرفان ومن أسراره
فعليه خير تحية لا تنقضي	تغشى جميع الآل مع أنصاره

(16) الكاتب الفقيه السيد علال بن عبد الرحمان بن حيون الفاسي، من مواليد مدينة فاس عام 1284هـ، تقلب في مناصب مخزنية بارزة منها أمين للأملاك والمستفادات المخزنية برباط الفتح. وبعدها عين كاتبا بوزارة المالية بالأعتاب الشريفة. وهو حفيد السيد الحاج محمد بن حيون أحد أصحاب وأحباب الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه، انظر ترجمته في رياض السلوان للعلامة سكيرج ص 105 .

باب في سبحته رضي الله عنه

كانت لسيدنا رضي الله عنه سبحة يذكر بها أذكاره اللازمة وغيرها(17)، وكانت من النوع المسمى باليسر(18)، ولم يكن فيها ترصيع بفضة ولا غيرها كما يستعمله من دأبه الفخر، وإنما اختار هذا النوع لسبحته والله أعلم لأمرين، أحدهما أن هذا النوع طيب كما أن الذكر طيب، فاختار الطيب للطيب، ثانيهما أن هذا اليسر فيه فأل حسن، والنبي (ﷺ) كان يحب الفأل الحسن، وكان عدد حبات سبحته مائة بلا زيادة ولا نقصان. وعلى هذا العدد تعقد كل سبحة تجانية اقتداء بشيخنا رضي الله عنه.

وعند السادة الإخوان التونسيين أخذ السبحة من نوع العناب(19) ويقولون : من لم تكن عنده منه سبحة فليس بشيء في الطريق.

باب في مأكوله رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه يقول : لا يكمل نفع الأشياء إلا بعد بلوغها من الثمار واللحم وغيرهما. وكان يأمر المتكلف بنفقته أن لا يشتري من ذلك إلا الحسن الجيد. وأما ما كان غير كامل الحسن فإنه يرده ولا يقبله(20)، وكان رضي الله تعالى عنه لا يأكل في اليوم إلا مرة واحدة، وذلك في الساعة العاشرة من النهار. وكان كثيرا ما يأكل الكسكس على نوع مخصوص من الطبخ، وكيفية ذلك أنه يأخذ المسخنات المعروفة عندنا برأس الحانوت، ويطبخها مع التمر المجهول، ويجعل ذلك خضرة

---

(17) قال العارف با سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي : قال الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح، كان سيدنا الشيخ رضي ا عنه يحب أن تجعل السبحة مربوطة في الحزام، ولا يخرجها صاحبها من حزامه إلا عند الذكر بها فقط.

(18) اليسر : شجر له حب شديد السواد طيب الرائحة، وفيه يقول بعضهم :

هو اليسر إن أردت عزا وراحة	وكنزا من الخيرات لا يتبدد
جليل محبب لدا الناس كلهم	ولونه صاف ذو نظارة أسود
يفوح بعطر المسك في كل ساعة	لتعلم باليقين أنه الأجود
ويكفي افتخارا أنها السبحة التي	بها يذكر الشيخ التجاني أحمد

(19) العناب : شجر حبه كحب الزيتون، أحمر حلو، والواحدة منه عنابة.

(20) كانت المؤونة اليومية لدار سيدنا الشيخ رضي ا عنه كبيرة وعظيمة، بحيث يحسب من لا يعرفها بأنها مؤونة لديار كثيرة متعددة، ولتقريب القارئ من وفرة هذه المؤونة وعظمها نشير إلى ما ذكره العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب، عند ترجمته للعارف بربه البركة سيدي العربي الأشهب، حيث قال : وبلغني أن صاحب الترجمة كان مارا في بعض طرق فاس، صاعدا إلى دار سيدنا رضي ا عنه، ومعه ثمانية أحمال من الفحم، اشتراها لآجل طبخ المؤونة لدار سيدنا رضي ا عنه، فصار كلما مر بطريق يقول له بعض الفضوليين من أهل فاس : هذا الفحم به يستعمل سيدي أحمد التجاني الكيمياء والإكسير، قاصدين بذلك تنقيص الشيخ رضي ا عنه، وصاحب الترجمة لا يجيبهم إلى أن وصل لدار سيدنا رضي ا عنه، فوجد الشيخ رضي ا عنه مع جماعة من أصحابه هناك، فقال له الشيخ رضي ا عنه : يا سيدي العربي ماذا سمعت الناس يقولون لك ؟ فأخبره بقولهم، فقال له الشيخ : نطلب من ا أن يسامحهم فيما يقولون.

على الكسكس ويأكل منه لقيمات، ثم يأخذه الإخوان فيأكلوه تبركا، وكان يطبخ أيضا اللحم على هذه الكيفية، وهذا النوع كالنوع المعروف عندنا بالمروزية، إلا أنه يجعل التمر عوضا عن الزبيب، ويشرب على ذلك شراب الزبيب.

وحدثني البركة الأجل المقدم سيدي الطيب السفياني(21) سقاني الله وإياه من كأس شيخنا الرباني أن المقدم سيدي موسى بن معزوز(22) شكا إلى سيدنا رضي الله عنه كثرة النوم وعدم القدرة على قيام الليل، فأمره بتقليل الأكل. فقال له : لا أقدر على ذلك، فأمره بأن يأكل في كل يوم مرة من النوع الذي يشتهيه ما يقدر عليه، ثم كذلك في كل يوم، فاستعمل ذلك فوجد في اليوم الأول بعض المشقة في احتمال ذلك، وفي اليوم الثاني انتقص من أكله قدر يسير، وخف عنه بعض الضرر، ثم كذلك حتى تعودت نفسه الأكل اليسير في وقت واحد من مجموع الليل والنهار، وصار يقدر على القيام بنشاط نفس.

اللـــحـــم :

كان سيدنا رضي الله عنه لا يأكل من اللحم إلا ما كان سمينا، وأما الهزيل فإنه لا يأكله ولا يأمر بشرائه. وكان صاحبه وخادمه سيدي العربي الأشهب الفاسي(23) مكلفا باشتراء المئونة اليومية لدار سيدنا رضي الله عنه. وقد اتفق يوما أنه اشترى لدار سيدنا رضي الله عنه سبعة عشرة قصبة من اللحم هزيلة في زمن الشتاء، فلما رآها سيدنا رضي الله عنه أمر بإخراج ذلك اللحم من داره، وقال لأهله : لا تأكلوها، وأمر بإعطائها لمن اشترها، وقال : خذها أنت لا يدخل لداري هزيل، وكان يقول لمن يتولى نفقته : لا تشتري الهزيل ولا الصغير واشتري العظم الغليظ.

---

(21) سبق التعريف به في ج 1 ص 42 من هذا المجموع.

(22) العارف با الشريف الجليل البركة سيدي موسى بن سيدي الكبير بن محمد بن معزوز الحسني. من خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه، توفي عام 1257هـ. انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 261. وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 3 ص 293. وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية للفقيه الحجوجي ج 1. وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 19.

(23) سيدي العربي الأشهب. صاحب الشيخ أبي العباس التجاني وخديمه الخاص. قال فيه مرة منوها بشأنه : نعم الصاحب. نعم الحامل. نعم الرفيق. توفي رحمه ا في حياة سيدنا الشيخ رضي ا عنه. ودفن خارج باب الفتوح بفاس. ولما أتى بعض الأصحاب لتعزية الشيخ رضي ا عنه فيه قال بعضهم له : يا سيدي إن مات سيدي العربي فكلنا مثله. فقال الشيخ رضي ا عنه : ما كان مثله ولا يكون. انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 474-486. وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 4 ص 81-94. وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية للفقيه الحجوجي ج 1. وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 50.

اللـــفـــت :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه من أنواع اللفت نوع المحفور، وأما نوع البلدي فكان لا يحبه، وكان يذمه غاية الذم لبرودته وضرره بالنبولة، وقد بلغنا عنه رضي الله عنه أنه دخل يوما عليه أحد أصحابه وهو سيدي أحمد الفيلالي(24)، وقال له : يا سيدي إني اليوم تغذيت مع سيدي فلان. وهو صاحبه سيدي الحاج الكبير لحلو(25) غداء جيدا. فقال له : ما هو ؟ فقال يا سيدي : الدوارة باللفت البلدي، فقال له سيدنا رضي الله عنه : الله يلعنها ويلعن شاكرها. هذا لفظ سيدنا رضي الله عنه. ومراده بلعن شاكرها أي من يشكرها إلى الناس ليقبلوا على أكلها فيحصل لهم ضرر. وكان المقدم البركة سيدي الطيب السفياني لا يأكلها من ذلك الوقت إلى أن توفي رحمه الله اتباعا لسيدنا رضي الله عنه، وقد كان يسميها بالملعونة، وفي اللفت ألغز بعضهم بقوله :

ما أبيض في خده حمرة   عليه أثواب من السندس

اللفت في أوصافه جملة   بينتها للحاذق الكيس

---

(24) أبو العباس سيدي أحمد بن عبد السلام الفيلالي الودغيري السجلماسي أصلا، الفاسي دارا وقرارا وموتا. من خيرة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه. توفي عام 1285هـ. ودفن خارج باب الفتوح بالقرب من ضريح أبي ميمونة سيدي الدارس بن إسماعيل رضي ا عنه. وهذا على حد قول العلامة الحجوجي، وذكر العلامة سكيرج أنه قد توفي بتونس وقبره بها مشهور مقصود من طرف الإخوان. انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 369-376. وفي رفع النقاب لنفس العلامة ج 1 ص 170-177. وفي فتح الملك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 10. وفي نخبة الإتحاف لنفس العلامة رقم الترجمة 16. وقد مدحه العلامة سكيرج بقصيدة قال في مطلعها :

يا سيدي يا أحمد الـ ـودغـيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـري   يا مطلع الأسرار في تنوير

لك في التجاني الختم حسن عقيدة   قد أبرمت باليسر والتيسيـ ـر

وربطت نفسك منه بالحبل الـ ـ ـذي   ما زال منبرما بلا تغييـ ـ ـ ـ ـر

(25) أبو عبد ا سيدي الحاج الكبير محمد بن عيسى لحلو. من أفاضل أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا تعالى عنه. توفي في 17 شعبان الأبرك عام 1277هـ. انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 507. وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 2 ص 275. وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية للفقيه الحجوجي ج 1. وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 40. وفي روض شمائل أهل الحقيقة لابن محم العلوي الشنجيطي رقم الترجمة 20. وفي حقه قال العلامة سكيرج في منظومته المسماة بجنة الجاني :

ومنهم الكبير لحلو مـ ـن حـ ـ ـ ـلا   مشربـ ـ ـه وقـ ـد غـدا مـبـ ـجـ ـ ـلا

وقال فيه أنه مـ ـن صـحـ ـبـ ـي   وخـ ـصـ ـه فـ ـي صحبـ ـه بالقـ ـرب

قدمه الشيخ إلى الصـلاة بـ ـ ـ ـ ـه   وقت اجتماعه به مع صـ ـ ـاحـبـ ـ ـ ـه

وكان ذا ذكر خصوصي لم يقـ ـ ـ ـم   بـ ـ ـه سـ ـواه وله خيـر يـعـ ـ ـ ـ ـ ـم

ولم ينيب سواه في أذكـ ـ ـ ـ ـ ـاره   لـنـكـته تـقـدمـ ـن أسـ ـ ـ ـ ـ ـراره

قال إذا مات المحافظ عـلـ ـ ـ ـ ـ ـى   خير فـإن فعلـه لـ ـن يـ ـبـ ـطـ ـ ـلا

لأنه ينب عـنـ ـ ـه مـلكـ ـ ـ ـ ـا   لفعل خيره الذي قـد تـ ـ ـ ـركـ ـ ـ ـ ـا

وإن فـعـ ـ ـ ـل الـملك المكـ ـرم   أفضل من نيابة الـغـ ـيـ ـ ـر السـمـي

فأجبته بقولي :

اللفت في لغزك لما بدا	قولا لطيفا لذوي الأنفس
فإن إلى اللفت في شرحه	قولي فقد اللفت في الأنفس

الـخـرشــف :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه الخرشف ولا يقول بالقناريه. وهي نوع منه معروف عندنا بفاس بهذا الإسم. وكان يفضل الخرشف على أنواع أخرى.

الـمـكــور :

كان سيدنا رضي الله عنه يحب الأكرنب المعروف بالمكور ويعجبه غاية.

الـقــرعة :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه من نوع القرع النوع المعروف عندنا بالسلاوية. ويقول إنها تبرد الحرارة ولا تضر بالذات. وهي تنفع المحمومين. ونقل لنا عن الولي الصالح سيدي العربي بن السائح كيفية في استعمالها، وذلك أن تؤخذ وتقشر ظاهرا وباطنا، وتبخر أو تطبخ بماء قليل في إناء، وهذا أحسن، ثم تؤخذ عصارتها مع شيء من المسك، ويشربها المحموم يشفى سريعا بإذن الله تعالى، وأما أكلها مع اللحم فهو جيد نافع معتبر لكل من اختبر، وكذلك أكلها على هذه الكيفية فهو جيد للغاية، وذلك أن تؤخذ وتنقى وتطبخ بزيت وشيء قليل من البصل والمعدنوس، فإذا غلت يلقى عليها شيء من الكمون، فإنها تأتي بديعة الأكل مبردة للحرارة.

الخدنجال :

كان سيدنا رضي الله عنه ينهي عن استعمال الخدنجال لزوال حصر البول وحرقته شربا، ويأمر بأن يستعمل عوضه البسيبيسة، وهي معروفة عند أهل فاس تغلى في الماء ويبرد ويشرب لذلك، فإنها أنفع، ولأنها لا يخشى معها توريث حرق النبولة ونحوه من الضرر الذي يحدث عن الخدنجال.

القطران :

كان سيدنا رضي الله عنه يحب رائحته ويستعمله في آنية شربه ويمدحه لأصحابه لشدة نفعه، وكان يقول : لولا أن أهل فاس لم يكن عندهم القطران ويشمون رائحته لما تواكلهم بالتخم.

ومما شوهد من كرامات سيدنا رضي الله عنه أنه جيء له بإنسان قد شرب السم وأضر به ضررا عظيما، ولم يجد له دواء، فقال لهم سيدنا رضي الله عنه لو أخذتم القطران وفعلتم هكذا وهكذا وأشار بيده إلى صدر المصاب لبرئ بإذن الله، فحصل الشفاء لذلك المريض بإشارته رضي الله عنه،

وهي كرامة له، ومن فعل مثل سيدنا رضي الله عنه لمصاب واستحضر همته في ذلك فلا شك عندي أنه ينفعه إن شاء الله، وقد فعلت ذلك بمصاب به فوجد الراحة من ضرره والحمد لله.

الـمـــاء :

كان سيدنا رضي الله عنه يفضل ماء العين على ماء الأودية، وذلك لصفائه من الكدر والخبث الواقع في ماء الواد، سيما إذا كانت الشمس تشرق فيه طوال النهار، فإنه تجتمع فيه الأضرار، ولذلك كان رضي الله عنه لا يشرب غالبا إلا منه، ويمدح استعماله لأصحابه عن استعمال غيره، فإن قلت ماء العين ثقيل واستعمال الخفيف أولى ؟ فالجواب أن ماء الوادي أعظم ضررا بسبب العفونات والكدورات الواقعة فيه، ولهذا فاتقاؤها أسلم لمضرته بنبولة الإنسان.

ضـرر الـحـمـــى :

كان سيدنا رضي الله عنه يقول : الحمى كلها حارة، وإنما تكون داخل الجسم فيبرد ظاهر الجسد من قبل شدتها، فلذلك إذا انفتحت في الذات انفتحت بالحرارة.

قال الولي الصالح سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه : مما جرب لشفاء المحموم أن يؤخذ عود الكنا ويبرد بنحو سكين، ويجعل ما ينزل منه في قطيع فيه ماء سخون، ثم يحرك فيه حتى تظهر رغوته من القطيع، ثم يصب منه نحو كأس في ماء، ويشربه المحموم، يشفى سريعا بحول الله وقوته(26)، ثم قال هذا هو الذي نعرفه وجربناه فوجدناه صحيحا، وأما ما يجئ من الروم الذي يسمونه روح الكنا فإنه لا علم لنا به ولا معرفة لنا به، ولا نتداوى به أصلا، لأنه لما صنع صار سما خارقا بسبب التصعيد، فهو قاتل، وقد شوهد ذلك في بعض الناس، والله يتولى هدانا جميعا بمنه.

الموسيقى :

لا خفاء على من له ذوق سليم أن النفس تنفعل بآلة الموسيقى، حتى أن من زال عقله وصارت تعزف وهو يستمع لها أحيانا فإنه يرد له عقله. وسماعها كالسماع بحسب السامعين في كلام عند علماء الشريعة بالتحريم والتحليل، ولسنا نتعرض لهذا المبحث هنا، وإنما نتكلم هنا على ما كان يستعمله

---

(26) جاء في كناش الفقيه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي قال : قال العارف با سيدي محمد العربي بن السائح رضي ا عنه : مرضت بالحمى مرضا شديدا فزارني مولانا محمد بن أبي النصر، فرأى عندي برادة فيها الرند الصيني، فقام وأهرقها، وأهرق الشرابة كذلك، وأمر بغسلها من أثر الرند. ثم قال للخادم انظر من الباب ؟ فإذا به عبد لمولاي محمد. وبيده سطل فيه لبن منزوع، فدخل علي فأمرني بالشرب، فشربت، فطلب مني زيادة الشرب، فشربت، ثم طلب مني الزيادة فشربت، حتى لم أقدر على الزيادة، ثم قال لي هذا دواؤك ودواء الحمى، ثم خرج وجلس بالسطوان وشرب ما بقي، ثم جعلت أشرب اللبن حتى شفاني ا عن قريب، ثم قال رضي ا عنه : قال لي مولاي محمد بن أبي النصر : ولو كان هذا اللبن لبن عنز لا أخرج من عندك حتى تعافى. وإن سيدنا الشيخ رضي ا عنه قال : دواء الحمى والصفراء اللبن المنزوع.

وفي نفس الكناش قال العارف با سيدي محمد العربي بن السائح : كان سيدنا الشيخ رضي ا عنه مما يداوي به الحمى اللبن، وخصوصا لبن المعز، أي الممخوض، ويداويها كذلك بالجوع وبشرب فطور الشعير.

سيدنا رضي الله عنه، فقد بلغنا عنه رضي الله عنه أنه أنشدت ليلة بين يديه قصيدة فتواجد فقال رضي الله عنه لأصحابه : أهنا من يعرف الموسيقى ؟ فقيل له كائن، فسأل منه إحضار أهلها في تلك الليلة، فأسعف السائل لذلك ليالي تسعا، وكان إذ ذاك رمضان، واستعملوا في الليلة الأولى كلام ابن الفارض وغيره من القوم(27).

تعظيم الأسماء والآيات :

لا يخفى أن تعظيم أسماء الله والقرآن من شعائر الإيمان، ومن أهان إسما من أسماء الله تعالى أو آية من آيات القرآن الكريم فقد ضل عن سوء السبيل بالخذلان، وإهانة ذلك يكون بعدم المحافظة عليه من القاذورات ونحوها، ولذلك حرم بعضهم تصفيح أوراق المصحف مع بل الأنامل بالريق الذي هو طاهر خوفا من تلطخه مما يستقذر.

وقد كان سيدنا رضي الله عنه يقول : من ألقى أسماءه تعالى أو كلامه في نجاسة يكفر، ولهذا ينبغي لمن كتب اسما من أسماءه تعالى أو آية لإنسان أن يأخذ على مريدها العهد بالمحافظة عليها أتم الحفظ، بحيث لا توضع إلا في المواضيع الطاهرة الطيبة، وأن يشمعها ويغلفها إذا أراد أن يعلقها على من لا معرفة له من الصبيان والنسوان، خوفا عليهم أن يصاب مستعملها بما يؤدي إلى الخسران.

ومما ينبغي أن يتفطن له أن لا يدفن مع ميت اسم أو آية ونحو ذلك، وإن أوصى بأن يدفن معه ذلك لما يرى فيه من الثواب، فإن ذلك من الضلال، ولذلك كان سيدنا رضي الله عنه يقول : من يدفن مع الميت اسما من أسماءه تعالى أو قرآنا يكفر، لأن الميت لا محالة يرجع دما وصديدا(28).

---

(27) انظر الإفادة الأحمدية للبركة سيدي الطيب السفياني. باب حرف الألف، وعن سببه قال رحمه ا : سببه أنه كان رضي ا عنه أنشدت بين يديه قصيدة فتواجد وقال : أهنا من يعرف الموسيقى ؟ فقيل له كائن، فسأل منه إحضار أهلها في تلك الليلة، فأسعف السائل لذلك ليالي تسعا، وكان إذاك رمضان، واستعملوا في الليلة الأولى كلام ابن الفارض وغيره من القوم، فسألهم في الغد لماذا لم تستعملوا طبوع الموسيقيين ؟ فأخبروا أنهم استعملوا ذلك قصدا وأدبا منهم معه على قدر جمعهم، فأمرهم باستعمال ما يعرفون منها، وكان يأمرهم بالمبيت معه ليلة ويتركهم أخرى، وكان لا يحضرهم بعد النصف الأول من الليل، وسأل يوما عن أجرتهم ؟ فلما أخبر بما يعطونه إستقل ذلك، وقال : لا يكفينا فزيدوا على ذلك، وطلبوا منه مرة أخرى في عرس أولاده فأسعف لذلك وأحضرهم بالنهار. وكان رضي ا عنه لا يحضرهم بعد الزوال ولا يقرب ساحتهم فيه، وكان رضي ا عنه إذا جلس للسماع يعطيه كليته. ولا يشتغل عنه بكلام إلا لإصلاح تصحيف أو تحريف في كلامهم، فيكلم الذي يليه في ذلك ويصلحه ولا يغفل عنه، ولا يحضر بحضرته من آلات السماع إلا العود والرباب والكمانجة فقط بأمر منه.
ومن العجائب أن المعلم عبد الحق الجابري الربائبي لم يحضر ليلة، فسأل عنه، فأخبر أنه لم يتيسر له المجيء، فأمر رضي ا عنه بتعطيل ذلك، مع أننا أتينا بمعلم مكانه، ومن الغرائب أن اليوم الأخير من العرس اجتمعنا عليه رضي ا عنه وطلبنا منه الفاتحة، فلما فرغ منها سقطت خصة عن مكانها حتى ذاع ماؤها، فكان ذلك الجمع آخر عهد بيننا وبينهم، انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 275.

(28) انظر الإفادة الأحمدية للبركة سيدي الطيب السفياني، باب حرف الميم، وفي كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 182.

نسبه رضي الله عنه

قال العلامة سيدي محمد بن المشري في كتابه روض المحب الفاني ما نصه :

أما نسبه رضي الله عنه فهو ينتمي إلى مولانا الحسن بن علي رضي الله عنهما، وتحقيق نسبه رضي الله عنه محقق عندي، ولم يعول الشيخ رضي الله عنه على ما هو مسموع عند الناس، وما هو مكتوب في العقود، حتى سأل النبي (ﷺ) عن نسبه وحققه له، سمعته يقول رضي الله عنه : سألت سيد الوجود (ﷺ) على نسبي هل شريف أم لا ؟ وعلى أهل القرية التي ولد فيها فإنهم ينتسبون إلى الشرف ؟ فأجابه (ﷺ) : أنت ولدي أنت ولدي وكررها ثلاث مرات، وأما أهل القرية فقال لي الشيخ رضي الله عنه : سكت عني (ﷺ) ولم يجبني بشيء في تحقيق نسبتهم، والشيخ لم يكن نسبه منهم، بل جده النازل فيها طارئ عليهم(29)، وليس بينهم نسب إلا من النساء، وإنما نسب إليها لتوطن أجداده بها، هكذا أخبرني رضي الله عنه، فمن حين سمع تحقيق نسبه من سيد الوجود (ﷺ) صرح بالشرف وجزم به للخاص والعام، وذلك لتحقيق نسبه في نفس الأمر، لأن سيد الوجود (ﷺ) أخبره يقظة لا مناما، وسأله عن أمور كثيرة ظاهرة وباطنة وأخبره بها (ﷺ)(30).

وعمود نسبه رضي الله عنه كالتالي :

هو العارف بربه القطب الرباني والغوث الصمداني أبو العباس مولانا أحمد بن محمد فتحا بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم بن أبي العيد بن أحمد بن أحمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد الجبار بن إدريس(31) بن إدريس بن إسحاق بن زين العابدين بن العارف بالله سيدي أحمد بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه من مولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله (ﷺ).

---

(29) ذكر العلامة القاضي الحاج أحمد سكيرج في العديد من أجوبته أن أجداد الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا تعالى عنه كانوا بمنطقة عبدة بإقليم بمدينة آسفي بالمغرب، والذي انتقل منهم إلى الصحراء الشرقية هو جده الرابع مولانا محمد فتحا بن سالم، وفد على قرية عين ماضي فاستوطنها وتزوج منها، وبها بقي أولاده إلى حين ازدياد سيدنا الشيخ رضي ا عنه، وبهذا القول قال جماعة من أكابر أعلام الطريقة الأحمدية التجانية، منهم الولي الصالح العلامة سيدي محمد العربي بن السائح، والمقدم الجليل سيدي محمد بلقاسم بصري المكناسي، والعلامة الفقيه سيدي محمد فتحا كنون، والفقيه سيدي محمد الحجوجي وغيرهم.

(30) أنظر روض المحب الفاني للعلامة العارف با سيدي محمد بن مشري ص 2.

(31) يخطئ بعض الجاهلين بعلم الأنساب فينسبون الشيخ أبا العباس التجاني للشرفاء الأدارسة، بدعوى ضم شجرته المباركة لشخصين وهما إدريس بن إدريس، وهذا خطأ كبير، لكون هذين الرجلين من أحفاد سيدي محمد النفس الزكية كما هو مرسوم في عمود نسبه، وبالتالي فهو قول باطل لا أساس له من الصحة، وذلك لأن المولى إدريس الأكبر الذي وفد على المغرب عام 172هـ هو واحد من إخوة سيدي محمد النفس الزكية وليس من أبنائه أو أبناء أبنائه، والنصوص التاريخية شاهدة بذلك.
والصحيح أن إدريس بن إدريس الواردين في نسب الشيخ التجاني رضي ا عنه هما من الأشراف الوافدين على المغرب في عهد الدولة الإدريسية، أما سبب تسميتهما معا بهذا الإسم الموافق لاسم باني مدينة فاس مولانا إدريس بن إدريس فإنه يعود لسبب واحد وهو أن الكثير من الشرفاء الحسنيين وفدوا على المغرب في هذه الفترة فارين من الاضطهاد الذي مارسته عليهم الخلافة العباسية بالمشرق، وكان المغرب بالنسبة لهم دار سلم وأمان، وهذا نظرا لوجود دولة عربية إسلامية حسنية على رأس الحكم به، ولهذا السبب كان الكثير من الشرفاء الوافدين على المغرب وقتذاك يسمون أبناءهم باسم مؤسس الدولة الإدريسية مولانا إدريس تيمنا باسمه ومحبة وتعظيما لقدره الجليل، بالإضافة لتمكنه من تأسيس دولة مستقلة ساعدت في استقطاب أهل البيت من جميع الجهات.

ذكــر أولاده رضـــي اللـــه عنـــه

كان لسيدنا الشيخ رضي الله عنه في حياته عشرة أولاد ستة منهم من الذكور وأربعة من الإناث، أما الذكور فهم سيدي محمد الحبيب الأول وسيدي المختار وسيدي خليفة وقد توفي صغيرا بفاس، وسيدي إسماعيل وتوفي صغيرا هو الآخر بأبي سمغون، وسيدي محمد الكبير (32) وسيدي

---

(32) سيدي محمد الكبير بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه، ازداد بقرية أبي سمغون بالصحراء الشرقية، وأمه هي السيدة الفاضلة (مبروكة)، وقد توفي رحمه ا شهيدا قرب مدينة أم عسكر من القطر الجزائري، وذلك بعد معركة طاحنة بين جموعه من جهة وجيش الباي التركي من جهة ثانية، وقد استشهد معه في هذه الواقعة أكثر من ثلاثمائة من أحبابه من رجال منطقة أبي سمغون، وكان تاريخ هذه المعركة عام 1238هـ، وفي هذا الصدد قال العلامة ابن محم العلوي الشنجيطي في مقدمة كتابه روض شمائل أهل الحقيقة ما نصه : ثم غزا سيدنا محمد الكبير الأتراك الساكنين بأم عسكر والجزائر، فهزم جيشه، وثبت هو ومن كان معه إلى أن استشهدوا كلهم، وبلغني أن إخواننا السمغونيين استشهدوا كلهم جميعا في تلك الواقعة، وبقيت نساؤهم بلا رجال إلى أن كبر لهن الصبيان، وقطع الأتراك رأسه رضي ا عنه، وبقي معلقا عندهم مدة، فسلط ا عليهم النصارى فأخرجوهم من الجزائر.

وكان الشيخ رضي ا عنه كوشف بقتلهم لواده فدعا عليهم بقوله : ا يسدها في وجوههم كما سدت جزيرة الأندلس، وضمير يسدها للجزائر، فأجاب ا دعوته، فما سكنها تركي بعد ذلك إلى يومنا هذا إلخ ...

وذكر العلامة سكيرج في كتابه رفع النقاب ج 1 ص 239 ما نصه : وقد بلغني على لسان الثقة بأن سيدي محمد الكبير بن الشيخ رضي ا عنه لما دخل للخلوة التي بأبي سمغون وسمع الهاتف بالنهضة لما طلب منه بالإنتصار للدين ومدافعة المعتدين على القطر الجزائري استشار العارف با سيدي بلقاسم العنابي التونسي مع أخيه سيدنا محمد الحبيب في شأن ما أمر به، فأجاباه بأن الأمر إذا كان من الحق يمضيه، ولكن أشار عليه سيدي بلقاسم العنابي بإبقاء نصف القوم مع سيدنا محمد الحبيب بقرية أبي سمغون، فلما خرج القوم من أبي سمغون معاهدين ا تعالى على نصرته ولو أتى الموت عن آخرهم قسمهم رضي ا عنه عندئذ إلى نصفين، نصفهم بقي مع سيدنا محمد الحبيب، والنصف الآخر أصحبه معه، وعند ذلك بث العارف بربه سيدي بلقاسم العنابي لسيدنا محمد الحبيب لكي يودع أخاه والقوم الذين معه توديع فراق ما بعده في هذه الدنيا تلاق، وقال : هذا أمر محتوم، ونحن جميعا مقهورون للتجلي، فما علينا إلا الإمتثال ليقضي ا أمرا كان مفعولا، وإن هؤلاء القوم الذين ترى لا يرجع منهم سوى أربعة إلخ ...

وذكر العلامة سكيرج في كتابه رفع النقاب ج 3 ص 34 ما نصه : ولما بلغ الخبر للقطب سيدي الحاج علي التماسيني رضي ا عنه وبخ أصحاب الشيخ الذين تخلفوا عن الواقعة وقال لهم : كان من حقكم أن لا تدعوه يذهب ولو قطعتم سرج فرسه، فقالوا له : لو أراد أخوه محمد الحبيب القيام بأخذ الثأر لقمنا معه ولا نبالي بما يقع لنا امتثالا لأمره، فصار يدعو لهم لصدق محبتهم، ثم قال لهم سيدي الحاج علي : إن من الرجال من يكلمه الحق في أمر ثم ينبرم عليه الأمر، وكان أمر ا قدرا مقدورا.

وقد رثاه العلامة سكيرج بقصيدة ميمية قال في مطلعها :

على م تبكي وتستبكي دموع دم ... والصبر أجمل عند كل مصطدم

إلى أن قال :

تبكيك يا ابن التجاني أعين همات ... بأدمع ذرفت من كل مـحـتـرم

تبكيك أعين أحباب رأوك وقـــد ... كادت صدورهم تنشق من ضرم

محمد الحبيب(33) أما الإناث فهم للا السعدية وللا زينب وللا فاطمة وللا عائشة. ولم يخلف رضي الله تعالى عنه بعد وفاته سوى اثنين من أبنائه وهم سيدي محمد الكبير(34) وسيدي محمد الحبيب(35) أما الباقي فكلهم ماتوا قيد حياته.

ذكر عبيده وخدامه

كانت لسيدنا رضي الله عنه مجموعة من العبيد والإماء، وكان يحسن إليهم غاية الإحسان، كما كان كثيرا ما يشتري العبيد ويعتقهم في سبيل الله، حتى إنه اشترى يوما نحو الخمسة والعشرين نفسا وأعتقهم كلهم، وقد وقفت على تقييد للولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح

---

(33) سيدي محمد الحبيب بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه، ازداد بمدينة فاس عام 1215 هـ، وأمه هي السيدة الفاضلة (امبريكة)، وكان عمره عند وفاة والده 15 سنة، ولم تزد مدة مكوثه بفاس بعد وفاة والده رضي ا عنه على تسعة أشهر، حيث هاجر إلى قرية عين ماضي بالصحراء الشرقية صحبة أخيه سيدي محمد الكبير والخليفة القطب سيدي الحاج علي التماسيني.

وقبل وفاته بأربع سنوات أدى رضي ا عنه فريضة الحج مع الركب الطرابلسي برا، وكان ذلك عام 1265هـ، وحج رفقته في ذلك الموسم جماعة من الأخيار من أهل الطريقة الأحمدية التجانية، ولما حل ببلاد مصر قدم العلماء والأفاضل لزيارته، فلم يكلم واحدا منهم، وذلك لاشتغاله بنفسه وأذكاره، كما أنه خاف عليهم من تضررهم بمذاكرته، نظر لعدم معرفته بقواعد اللغة العربية التي تخول للمطلع عليها تبادل أطراف الحديث بطلاقة، وبعد رجوعه لعين ماضي انكب على قراءة النحو والصرف وما إلى ذلك، فبرع فيه خلال وقت وجيز، وكانت وفاته رحمه ا بتاريخ يوم السبت فاتح جمادى الثانية عام 1267هـ، وعمره وقتئذ 52 سنة، ودفن مع ابنه سيدي أحمد المتوفي في حياته في قبة واحدة، وقد مدحه العلامة سكيرج بعدة قصائد منها نونية قال في مطلعها :

فؤادي بالصبابة فيك عـاني فداركني فإني فيك فانـي
وقصر من جفاك ولا تزدني عذابا ليس يحمله جناني

(34) لم يخلف سيدي محمد الكبير بعده ذكورا، لكنه ترك ابنتين الأولى للا رقية، وقد تزوجت بابن عمها سيدي أحمد بن سيدي محمد الحبيب المعروف بابن السيدة زهراء الحبشية، وبعد وفاته تزوجت عند انقضاء عدتها من أخيه سيدي أحمد عمار، فولدت له بنتا وهي للا فاطمة، ولدا حفل عقد قرانها قال بعض الأدباء :

بشرى لنا زمن الأفراح عوضنا دهر الشوائب والأحزان والدنـف
وذاك إذ نكح الإبريـز فضتـه والجوهر اللؤلؤ المكنون في صدف
زفت له وسواها ليس يـكفـؤه فهل يباع ثمين الـدر بالخـزف

وتوفيت للا رقية المذكورة في شهر رجب عام 1309هـ، أما البنت الثانية لسيدي محمد الكبير فهي للا فاطمة وقد تزوجت بالمقدم الفاضل البركة سيدي محمد نجل القطب الشهير سيدي الحاج علي التماسيني.

(35) خلف سيدي محمد الحبيب ولدين، وهما سيدي أحمد عمار المتوفي في 18 ذي القعدة الحرام عام 1314هـ، ودفن بقبته بكردان على مقربة من عين ماضي، ثم سيدي محمد البشير المولود عام 1266هـ، والمتوفي في الساعة الحادية عشرة من ليلة السبت 12 جمادى الثانية عام 1329هـ بكردان، ثم نقل لعين ماضي ودفن ضجيعا لوالده سيدي محمد الحبيب في قبة واحدة.

أما من الإناث فقد خلف سيدي محمد الحبيب رضي ا عنه 14 بنتا، منهم للا عائشة، وللا حليمة، وللا ماما، وللا مباركة، وللا خديجة كاينة، وللا خديجة الكبيرة، وللا بيرى، وللا أم كلثوم، وللا حفصة، وللا يامنة، ومعظم هؤلاء الشريفات تزوجن بأولاد القطب الشهير سيدي الحاج علي التماسيني.

رضي الله عنه قال فيه ما نصه : كان مولانا الشيخ رضي الله عنه يملك الرقيق كثيرا ويحسن إليهم كثيرا، حتى كانت مماليكه أحسن من مماليك الملوك، بحيث إذا مر مملوك ذو هيئة يقول الناس : هذا مملوك سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه، وكان لا يعتق من الرقيق الذي في داره ولا يبيع منه، ويقول : إذا انتقل من عندنا وفقد النعمة التي كان فيها عندنا نكون تسببنا له في شر(36).

وإذا أراد أن يعتق اشترى وأعتق فورا من غير أن يدخلوا داره، بحيث أن العدل الذي يكتب رسم الشراء هو الذي يكتب رسم العتق، قال : وكان يعطي لمن يعتقه من العبيد عشرة مثاقيل، قال : واتفق أنه أعتق في يوم واحد على هذه الكيفية سبعة عشر رقيقا، قال : فقال أحدهم : أروني سيدي هذا الذي اشتراني وأعتقني، فأخبر الشيخ بذلك، فقال : ايتوني به، قال له : يا سيدي أنت الذي أعتقتني ؟ فقال له نعم، قال : قد وهبت نفسي لك، فقبله، وجعل يخدمه حتى كان من أمره ما كان، بحيث كان يرى النبي (ﷺ) ولا يتبجح بذلك، حتى يقول له : أنا محمد بن عبد الله رسول الله، ومن لم تحصل له هذه المقالة لا يسلم له في الرؤية.

وهذا العبد هو سيدي بوجمعة المشهور بين الأصحاب، قال : وكانت مماليكه رضي الله عنه كلهم آخذين لورده المحمدي، وكان يزوج عبيده بالإماء، حتى أنه لا يترك من الحيوانات الصامتة أنثى إلا أمر بتزويجها بذكر والعكس كذلك(37).

وكان عند النوم يقف عند الباب حتى يدخل كل عبد وزوجته إلى محلهما، ويسد عليهم الأبواب بأقفال، ويجعل المفاتيح في صندوقه، وقبل الصبح بنحو ساعة يوقظهم ليغتسل مريد الغسل، ويتوضأ مريد الوضوء، ويصلون جماعة إهـ... ومن جملة عبيده رضي الله عنه سيدي الحاج

---

(36) ذكر العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب ص 15 قال : رأى سيدنا رضي ا عنه بعض خدم بعض الناس مفرطين في كسوتهم، ضائعين في أبدانهم، مشوهين في لباسهم في زمن الشتاء، فقال لأصحابه : حاشا ا أرباب هؤلاء المماليك أن يشموا رائحة الإسلام.

(37) حول هذا الصدد ذكر العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب ص 15 قال : وكان سيدنا رضي ا عنه لا يحب أن يترك تحت يده أو يد غيره من الناس خدما بلا تزويج، ويقول لأصحابه : من يملك الأمة من غير أن يتسرى بها أو يزوجها لغيره أو يبيعها بهذا الشرط فليحط سبحتي ما بيني وبينه شيء.

بوجمعة(38) المذكور سابقا، وسيدي مسعود(39) وسيدي بلال(40) وسيدي بركة(41) وسيدي مهدي(42) وسيدي سالم الصغير(43) وغيرهم.

ذكـــر وفـاتـــه

كانت وفاة سيدنا رضي الله عنه صبيحة يوم الخميس 17 من شهر شوال عام 1230هـ، وذلك بعد أن صلى الصبح، ثم اضطجع على جنبه الأيمن رضي الله عنه، ثم دعا بماء فشرب منه،

---

(38) الولي الصالح الفاضل سيدي الحاج بوجمعة السوداني، من أهل الفتح الكبير، كان رحمه ا كثيرا ما يرى النبي (ﷺ)، وكان غالبا ما يستعمل لهذه الغاية الصلاة المسماة بالجامعة، وهي التي كان يستعملها الواسطة المعظم سيدي محمد بن العربي الدمراوي عند إرادته الإجتماع بالنبي (ﷺ) يقظة، وقد ترجم له الولي الصالح العلامة سيدي محمد العربي بن السائح في كتابه بغية المستفيد عند قول ناظم المنية :

ومن يكن لازمها سبعا لدا ... منامه يرى النبي أحمـ ـ ـدا

صلى وسلم عليـه الالـه ... ما اشتاق مومن إلى لقيـ ـاه

وقد زوجه سيدنا رضي ا عنه بأمته فاطمة عام 1226هـ، وتأخرت وفاته بعد وفاة الشيخ رضي ا عنه بعشرين سنة، أنظر ترجمته كذلك في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 216، وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 1 ص 219، وفي نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 126.

(39) سيدي مسعود، رجل فاضل صالح، اتخذه سيدنا رضي ا عنه بوابا بباب داره، فكان لا يدخل أحدا إلا بعد أن يستأذن عليه، ومما حدث لهذا الفاضل أنه كان ذاهبا مرة مع سيدنا رضي ا عنه، فسمع الشيخ هرة صغيرة تصيح، فقال له : يا أبا السعود ارفعها معك، فرفعها، ولما وصل لداره رضي ا عنه أرسل له عشاءها، وكانت عادته رضي ا عنه في وقت الأكل يأمر بقصعة من الطعام للقطاط التي بداره، وبعد وفاة سيدنا رضي ا عنه رافق سيدي مسعود الشرفاء إلى عين ماضي، وبها توفي رحمه ا ، أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 215، وفي نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 125.

(40) سيدي بلال، من خيرة خدام سيدنا رضي ا عنه، كان لا يقدر على مفارقة الشيخ رضي ا عنه، بل كان ملازما له في الذهاب معه إلى أي موضع أراده، قال العلامة سكيرج : وقد بلغني على لسان الثقة أن سيدنا رضي ا عنه كان نازلا من ملاقاة سلطان الوقت مولانا سليمان قدس ا سره، وهو مار بأعلى زقاق الحجر من مدينة فاس، وكان بعض أكابر الشرفاء جالسا بدار مولانا سليمان المعروفة هناك، فلما رأوا سيدنا رضي ا عنه نازلا من أعلى الطريق، وهو راكب، وخديمه سيدي بلال عن يمينه، وخديم آخر عن يساره، قال بعضهم لبعض سرا : وا إن هذا التجاني لآية من آيات ا ، وسكتوا، فلما وصل إليهم سيدنا رضي ا عنه وقاموا ليسلموا عليه، قال لهم رضي ا عنه مكاشفا لهم : قولوا وا إن التجاني لآية من آيات ا العظام، وكررها عليهم رضي ا عنه، فتعجبوا من ذلك، وحصل لهم في جناب سيدنا رضي ا عنه زيادة اعتقاد في رسوخ قدمه في الولاية، وتلقوا عنه طريقته المحمدية بعد ذلك، ودارهم إلى الآن لا زالت معمورة بالإخوان إلخ ... أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 215، وفي نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 127.

(41) سيدي بركة، رجل فاضل موصوف بالصلاح والإستقامة، أنظر ترجمته في نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 128.

(42) سيدي مهدي، رجل تقي عابد، معظم لدا الخاص والعام، وكان ممن وضع له القبول في الأرض، تلتمس منه البركات، وتطلب منه صالح الدعوات، في سائر الأوقات، أنظر ترجمته في نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 129.

(43) سيدي سالم الصغير، من الموصوفين بكمال الولاية، وصفاء السريرة، أنظر ترجمته في نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 130.

ثم عاد إلى اضطجاعه على حالته، فطلعت روحه الكريمة من ساعته، وصعدت إلى مقرها الأقدس(44).

ثم غسل رضي الله عنه بمقر منزله المعروف بدار المراية، وحضر جنازته المباركة ما لا يكاد يحصى من علماء فاس وصلحائها وفضلائها وأمرائها، وتولى الصلاة عليه بمسجد القرويين العلامة الأوحد، والمفتي الماهر الأمجد، أبو عبد الله سيدي محمد بن إبراهيم الدكالي(45)، وازدحم الناس على حمل نعشه المبارك الميمون، وكسروه بأثر دفنه أعوادا صغارا ادخروها بما حمل فيه من السر المصون، ثم وضع في ضريحه والقلوب منفطرة لفقده، وكل حاضر دموعه جارية على خده، وذلك بموضعه المعلوم بزاويته المباركة(46).

---

(44) جاء في كناش الفقيه المقدم سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي قال : قال العارف با سيدي محمد العربي بن السائح : إن الشيخ رضي ا عنه في مرضه الذي توفي فيه أمر بإحضار دالية البوصيري، فلم توجد بفاس، فأرسل إليها بعض الخاصة من أصحابه لمكناسة الزيتون، فلما جاءت أمر بقراءتها، فلما أتموا قراءتها لم يتكلم معهم بعد ذاك أصلا، وا أعلم بمراد الشيخ، وكذاك أمر بإحضار نونية الإمام الغزالي، فوضعها تحت وسادته، إلخ ... ومطلع دالية البوصيري :

كتب المشيب بأبيض في أسـ ـود   بغضاء ما بيني وبين الـخـ ـرد
خجلت عيون الحور حين وصفتها   وصف المشيب وقلن لي لا تبعد

ومطلع نونية الإمام الغزالي :

قل لإخوان رأوني ميتا   فبكوني إذ رأوني حزنـا
أتظنون بأني ميتكـ ـ ـم   لست ذاك الميت وا أنا

أنظر القصيدتين معا في رفع النقاب للعلامة سكيرج، الأولى في ج 3 ص 152، والثانية في ج 3 ص 146.

(45) أبو عبد ا سيدي محمد فتحا بن الفقيه سيدي إبراهيم بن عبد العزيز بن الشيخ أبي الحسن سيدي علي الخياط بن إبراهيم بن القطب الرباني أبي محمد سيدي عبد ا الخياط الحسيني الرفاعي، عالم جليل، من حفظة المذهب المالكي في وقته، وهو شيخ الإفتاء بالمغرب، وقد تولى القضاء بمدينة فاس فحمدت فيه سيرته، وهو معروف مشهور بابن إبراهيم، وكان له اتصال وثيق بالزاوية الناصرية، حيث أنه من خيرة المقدمين المرشحين لتلقينها بمدينة فاس، وكانت وفاته رحمه ا ليلة الجمعة 10 رجب عام 1241هـ، ودفن بزاويته المشهورة به بدرب الحرة من طالعة فاس، وضريحه بها على يمين المحراب، وعليه دربوز، وهو معروف متبرك به إلى الآن، أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 381 رقم الترجمة 1526، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 355 رقم الترجمة 789، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 254، وتوسع في ترجمته كثيرا العلامة أبو عبد ا سيدي محمد المسناوي الدلائي في كتابه جواهر السماط في مناقب سيدي عبد ا الخياط.

(46) وبعد وفاته رضي ا عنه بمدة أربعة أشهر، عقد أبنائه العزم على السفر للصحراء والإستقرار بها، فقاموا لأجل الغاية المذكورة بإخراج جثة والدهم من قبره، فجعلوها في صندوق وحولوه ليلا إلى دار سكناهم، وهي دار المراية، وذلك حتى يتهيأوا للسفر المذكور، ووقع هذا بتاريخ 21 صفر الخير عام 1231هـ، ولم يعلم أهل فاس بذلك إلا بعد يوم أو يومين، فقاموا على ساق الجد وردوه رضي ا عنه إلى قبره بالزاوية المباركة، وهو في حالته المعهودة كأنه نائم، وبنى أهل فاس على قبره بناء وثيقا أغمقوا في جوانبه جزاهم ا خيرا.

خـاتـمــــــــة

لم يكن العلامة سكيرج فيما صنف جامعا شارحا مختصرا فحسب، ففي هذا القول غمط لمكانة الرجل العلمية، بل توافرت لديه كل الأسباب التي أهلته للتفوق والريادة، فهو حافظ مفسر دارس للقرآن وعلومه، وهو أيضا دارس حافظ شارح للسنة ومجاميعها، وهو من حيث تمكنه من العربية يعد مجددا فيما كتب عن أصولها وقواعدها والأشباه والنظائر فيها، وهو من حيث اطلاعه على التراث الفقهي والأصولي الذي سبق عصره قد درس كل مصادر هذا التراث دراسة مستوعبة لأدق خصائصه، ووقف على مناهج الأئمة في الإجتهاد، وعوامل الاختلاف بينهم في الآراء، وقد منحه الله عقلية تحررت من الجمود والتقليد، وتمتعت بالنظر العلمي المستقل، فجزاه الله خيرا على ما أسداه لهذه الأمة من خدمات جليلة، حيث ستبقى هذه الخدمات حية في ذاكرة التاريخ، ولا محالة أنها ستتبئ الأجيال القادمة بما لهذا الرجل الفاضل من آياد جلية سامية في نطاق العلم والمعرفة الصحيحة.

وبما أن هذين الجزءين لم يسعا ما كنت أريد إدخالها ضمنهما من تقاييد ورسائل العلامة سكيرج، ارتأيت أن يكون لهذا البحث المتواضع جزآن آخران، وهما الثالث والرابع، حيث سيمكنني من إضافة مقتطفات أخرى من أجوبة وتصانيف هذا العالم الجليل.

وبهذا ينتهي الجزء الثاني من هذا البحث، ويليه الجزء
الثالث، وبعده الرابع.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما
سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك
المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،
وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.